الحسن بن أحمد الهمداني

وكتابه الإكليل

- ١ -

الدكتور : إحسان النص

المؤلف

أ) عصره وبيئته

عاش المؤلف في بلاد اليمن متنقلاً مابين صنعاء وريدة وصعدة، وجاب أكثر بلاد العرب وجاور بمكة ودخل بغداد، وكان قومه يقطنون في بادئ الأمر في «المراشي» ثم استقر جدّه في صنعاء.

وعصر الهمداني هو القرنان الثالث والرابع الهجريان، وهو عصر ازدهار الحضارة العربية في المشرق والمغرب، ففيه ترجمت الكتب العلمية والفلسفية، وظهر العلماء الكبار والشعراء المبرزّون، وقد أفاد الهمداني من ازدهار العلوم في عصره فوقف على علوم الهندسة والفلك والطب وغيرها، وكذلك ظهرت في عصره أكثر الفرق الدينية والمذاهب الإسلامية وكان لها صداها في بلاد اليمن.

وكانت البيئة التي عاش فيها مسرحاً للنزاعات القبلية والسياسية والصراع المذهبي والعقدي، فكانت اليمن من المواطن التي نشطت فيها الدعوة الإسماعيلية وحركات القرامطة، وقامت فيها الإمامة العلوية الزيدية على يد يحيى بن الحسين العلوي وولديه محمد المرتضى وأحمد الناصر، وكان لها سلطانها البعيد في بلاد اليمن.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.aTukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي هذه البيئة كذلك نشب الصراع بين زعماء القبائل اليمنية، وبينهم وبين ملوك حمير والأئمة العلويين، كل يحاول بسط سلطانه على ما حوله. وفي كتاب الإكليل صور من هذا الصراع، وقد نال الهمداني طرف منه وكانت له مشاركة في جانب منه.

ب) حياته

مؤلف الكتاب هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف ابن داود بن سليمان ذي الدمنة، وينتهي نسبه إلى دومان بن بكيل من قبيلة همدان، وقد لُقب بابن الحائك، وأطلق على نفسه لقب «لسان اليمن».

وقبيلة المؤلف همدان من أضخم القبائل القحطانية اليمنية، وجذم قحطان يتفرع إلى فرعين كبيرين هما: كهلان وحمير، ومن كهلان تتفرع قبائل كثيرة أشهرها: هَمْدان، والأزد، وأنمار، وطيّيء، ومَذْحِج، ولَخْم، وجُذام، وكِندة. وتتفرع همدان بدورها إلى قبيلين كبيرين هما: حاشد وبكيل. وما زالت لقبيلة همدان كثرة عددية في اليمن في أيامنا هذه، وكان لها شأن كبير قبل الإسلام وبعده. وقد هاجرت طوائف منها بعد الإسلام إلى العراق واستقرت في الكوفة، وكانت من أنصار علي بن أبي طالب وقاتلت معه في وقعة صفين وأصيب منها خلق كثير وحالفها الأشتر على الثبات حتى الموت[1].

ولما استقرّ الأمر لمعاوية أصبح ولاؤها لبني أمية وكان لها دور في القبض على حجر بن عديّ، رجل الشيعة الذي قتله معاوية[2]. وكانت همدان تؤلف في بادئ الأمر أحد أسباع الكوفة، تشاركها فيه مذحج

(١) تاريخ الطبري ٥/٢٠.

(٢) انظر تفصيل الخبر في الطبري ٥/٢٦١.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحمير[٣]، ولَما ولِّي زياد بن أبي سفيان الكوفة سنة خمسين للهجرة لم يرض عن التوزيع القبلي في أتباع الكوفة والذي روعي فيه جمع القبائل المتقاربة في نسبها في كل سبع، فعدّل الأسباع وجعلها أرباعاً، قاصداً من ذلك جمع قبائل متباعدة في أنسابها في كل ربع،إطفاء لنار العصبية القبلية، فجمع لذلك بين همدان وتميم في ربع واحد[٤]. وقد ظلَ لقبيلة همدان الكثرة العددية في قبائل الكوفة حتى نهاية العصر الأموي[٥].

أما ممن فقد استقر فيها من بطون همدان من لم ينزح إلى العراق، والهمداني يذكر لنا في كتاب الإكليل أسماء بطون همدان التي هاجرت إلى الكوفة.

وقد لُقّب المؤلف بابن الحائك، وعلّل القفطي إطلاق هذا اللقب عليه فقال:

«فأما تلقيبه بابن الحائك، فلم يكن أبوه حائكاً ولا أحد من أهله ولا في أصله حائك، وإنما هو لقب لمن يشتهر بقول الشعر، وكان جدّه سليمان ابن عمرو المعروف بذي الدُمينة (أو ذي الدمنة) شاعراً، فسُمّي حائكاً لحوكه الشعر»[٦].

ولد الهمداني سنه ٢٨٠هـ[٧] في صنعاء ونشأ بها. وكان أجداد المؤلف يقطنون من قبل موضع المراشي، وهو الوادي الثالث من أودية الجوف

(٣) الطبري ٤/٤٨.

(٤) الطبري ٥/ ٣٦٩، ٥/ ٤٢٢.

(٥) الطبري ٤/ ١١.

(٦) إنباه الرواة للقفطي ١/ ٢٧٩.

(٧) استخرج الأستاذ محمد بن علي الأكوع محقق الجزأين الأول والثاني من الإكليل ما يدل على تاريخ ولادة الهمداني من المقالة العاشرة من كتاب سرائر الحكمة للهمداني.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكبرى في بلاد اليمن، وموطن قبيلة بكل. ثم انتقل أحد أجداد المؤلف وهو داود بن سليمان بن ذي الدمينة هو وقومه إلى الرحبة من أعمال صنعاء، مخالطين بلحارث، ثم انتقل في أواخر أيامه، هو وابنه يوسف، إلى صنعاء فاستقر بها هو وأولاده، ويذكر الهمداني أن قوم هؤلاء، كان لهم بصر بالإبل لم يكن لأحد من العرب[٨].

ومن أخبار أسرته التي يرويها المؤلف أنه كان لأبيه لدان: الحسن، وهو المؤلف، وأخوه إبراهيم. وزوجة المؤلف قريبته فاطمة بنت محمد بن إبراهيم، وكان للهمداني ولد اسمه مالك توفي في حياة أبيه فرثا عدد من القصائد [٩]. وكان له ولد آخر اسمه محمد، وهو الذي شرح قصيد أبيه الدامغة، وبه كان الهمداني يكنى . وقد عني المؤلف بذكر نسب عشير بني أدهم بن قيس بن ربيعة .... بن بكيل مفصّلاً حتى زمانه، في الجزء العاشر من الإكليل [١٠].

ولما شبّ الهمداني انصرف إلى تلقّي ألوان المعارف عن جماعة من الشيوخ في التاريخ والجغرافية وعلم النسب والعربية وعلم الفلك وغيرها من العلوم.

لا نملك أخباراً وافية عن حياة الهمداني وما مرّ به من أحداث، وكل مالدينا من أخباره مستخلص من مؤلفاته، ومن كتاب الإكليل خاصة.

ومما يستخلص من مؤلفاته أنه قام برحلات وجولات في شتى بقاع بلاد العرب، واليمن خاصة، فقد دخل حضرموت وأخذ عن علمائها وطاف

---

(٨) الإكليل ١٠/١٩٩.

(٩) الإكليل ١٠/ ١٩٨.

(١٠) انظر الإكليل ١٠/ ١٩٢ وما بعدها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ببلاد الحجاز ونجد وجاور بمكة زمناً وأخذ عن شيوخها وأخذ الناس عنه، وسار إلى العراق واتصل بعلمائها. وقد أفادته هذه الرحلات في تنمية معارفه اللغوية والأدبية والعلمية والتاريخية والجغرافية. ويذكر الخزرجي(١١) أن الهمداني كان واسع الاطلاع على علوم العرب من نحو ولغة وأدب وشعر وأيام وأنساب، وكذلك كان واقفاً على علوم العجم مثل علم النجوم والهندسة والفلك (١٢). وهذا ينبئنا أن الهمداني تلقى معارفه عن شيوخ كثيرين في شتى ألوان المعرفة، ولكننا لا نعرف أسماء هؤلاء الشيوخ فلم يتحدث عنهم، كما أن من ترجموا له لم يذكروا أسماء شيوخه، وفي كتبه إشارات إلى من اتصل بهم من العلماء وأخذ عنهم ولا سيما في الأنساب، وسوف نعرض لمن أخذ عنهم في الأنساب في حديثنا عن كتاب الإكليل.

ومما عرفناه عن طبيعته وميوله أنه كان شديد التعصب للقحطانية، وقد جرَ عليه هذا التعصب خصومة العدنانيين والمتعصبين لهم، وقد نسبوا إليه أنه عرّض بشخص الرسول ﷺ بسبب هذه العصبية، وهي تهمة باطلة نتحدث عنها بعد قليل، وبدافع هذه العصبية قال قصيدته الدامغة التي عارض بها قصيدة الكميت في الفخر بالنزارية.

لم يستقر الهمداني في بلدة واحدة من بلاد اليمن، فقد نشأ في صنعاء ثم أقام مدة من الزمن بمدينة رَيدة، وقد ذكر ياقوت أنها على مسيرة يوم من

(١١) الخزرجي هو علي بن الحسن الخزرجي الزبيدي (ت ٨١٢ هـ)، من أعلام المؤرخين اليمنيين. من كتبه: «طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن». و «العقود اللؤلئية في تاريخ الدولة الرسولية» مطبوع في جزأين، و «العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن و«العسجد المسبوك في تاريخ الإسلام وطبقات الملوك». وله ديوان شعر.

(١٢) بغية الوعاة للسيوطي ١/ ٤٩٨.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صنعاء ذات عيون وكروم[١٣]. ووصفها الهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب» بقوله: «ثم من بعد صنعاء من قرى همدان في نجدها بلدة ريدة، وبها البئر المعطلة والقصر المشيد وهو تُلقم، ويسكنها اللعويون.»[١٤]، وكانت ريدة موطن قبيلة حاشد الهمدانية، أخت بكيل.

استقر الهمداني في ريدة بلدة قومه همدان، وكان على مودّة قوية بسلطانها أبي جعفر أحمد بن محمد الضحّاك، سيّد همدان في زمنه. ويحدثّنا الهمداني عن ابن الضحّاك في سياقة نسب همدان فيقول: «فأولد الضحاّك محمداً، فأولد محمد بن الضحاك أحمد أبا جعفر سيد همدان في عصرنا وصاحب الوقائع والأيام، وهو الذي يمدحه الهمداني ويقيّد أيامه، وهو منه خِلّ وصاحب، وشهد مئة وقعة وستّاً كان أكثرها بين حزبه وبين يحيى بن الحسين العلوي، وأسر ابنه محمد بن يحيى يوم إتوة، ثم صافاه ابنا يحيى: محمد المرتضى وأحمد الناصر، وكان لهما نعم الصاحب والوزير على أمورهما، ثم باعده القاسم بن الناصر، فجرى بينهما ما ينطق به شعر الهمداني، ودخل صعدة ثلاث مرات فأخربها، ودخل صنعاء كرتَين فأحسن فيهما»[١٥].

ومن هذا نستخلص أن الصلات بين الهمدانيين وأسرة الإمام العلوي بصعدة لم تكن دائماً صلات مودّة وصداقة، ولم يكن للإمام العلوي سلطان على سيد همدان.

ولسبب لا نعرفه غادر الهمداني ريدة وأقام بمدينة صعدة، وفيها قبيلة خولان، فأقام بها عشرين سنة. ويصفها ياقوت بقوله: «صعدة مدينة عامرة

(١٣) معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/ ١١٢.

(١٤) صفة جزيرة العرب ص ٦٦.

(١٥) الإكليل ١٠/ ٦٧.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آهلة يقصدها التجار من كل بلد، وبها مدابغ الأدم وجلود البقر التي للنعال، وهي خصبة كثيرة الخير»، [١٦]، ووصفها الهمداني في صفة جزيرة العرب بقوله: «ثم من هذه السَراة في بلد خولان بن عمرو بن ألحاف مدينة صعدة، وكانت تسمى في الجاهلية جماع، وهي كورة بلاد خولان وموضع الدباغ.»[١٧]، ومدينة صعدة من مدن اليمن المعروفة اليوم، وهي إلى الشمال من صنعاء، تبعد عنها تسعون ميلاً، على مقربة من حدود المملكة العربية السعودية، وقد وصفها الأستاذ الأكوع وصفاً مفصلاً في هامش الإكليل[١٨].

غادر الهمداني إذن ريدة موطن قبيلة همدان إلى صعدة موطن قبيلة خولان، وخولان هذه ليست خولان المعروفة بفكْل والتي تنتمي إلى مُرّة بن أُدد بن عَريب بن كهلان، وإنما هي قبيلة أخرى تنتمي إلى جذم قضاعة بن حمير. فتلك كهلانية وهذه حميرية ونسبها: خولان بن عمرو بن ألحاف بن قضاعة. وهذه القبيلة لم يذكر ابن الكلبي نسبها في كتابه: نسب معدّ واليمن الكبير، وتابعه في هذا الإغفال النسابون بعده، ومنهم ابن حزم في جمهرة أنساب العرب، وخولان هذه استقرّت في بلاد اليمن ولم تنزح إلى بلاد الشام، شأن إخوتها القبائل القضاعية، فخفي أمرها على النسّابين. ويعلّل الهمداني سبب إهمال النسّابين غير اليمنيين إياها بقوله: «ولو كانت صعدة في القديم من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء»[١٩].

(١٦) معجم البلدان. مادة صعدة ٣/ ٤٠٦.

(١٧) صفة جزيرة العرب ص ٦٦.

(١٨) انظر الإكليل ١/ ٨٩. في الهامش.

(١٩) الإكليل ١/ ٢٧٥.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استقرّ الهمداني في صعدة، وحاطته قبيلة خولان برعايتها، وقرّبه رؤساؤها، وأغدقوا عليه الصلات، فأنشأ القصائد الغُرّ في مديحهم، وطاب له المقام فيها فأقام فيها عشرين سنة ـ حسبما يذكر ـ وهذه الإقامة الطويلة جعلته يقف على أنساب خولان على نحو وافٍ نجد صداه في كتاب الإكليل، فقد وقف وقفة طويلة عند نسب خولان وفصّله غاية التفصيل في حين أنه أجمل القول في سائر قبائل قضاعة لشهرتها. ويقول في ذلك: «فسكنت بها عشرين سنة، فأطللت على أخبار خولان وأنسابها ورجالها كما أطللت على بطن راحتي، وقرأت بها سجلّ محمد بن أبان الحنفري المتوارث من الجاهلية»[٢٠].

على أن إقامته بصعدة لم تخل ممّا يعكّرها، فقد أثارت الشهرة التي نالها والمنزلة التي حظي بها لدى رؤساء خولان حسد شعراء صعدة، فأخذوا يدسّون له الدسائس، وكانت صعدة مقرّ الإمام العلوي الزيدي الناصر لدين الله أحمد بن يحيى (ت ٣٢٥ هـ)، فنميت إليه أمور جعلته يأمر بسجن الهمداني. والمصادر التي تحدثت عن سجنه لم تأت بسبب مقنع لذلك، جاء في بعضها أنه لهج بتفضيل قبيلة قحطان على عدنان وحقّر ما عظم الله، وتجاسر على انتقاص من اصطفاه الله»[٢١]. ونحن نستبعد أن يقدم الهمداني على التعرّض لمكانة الرسول ﷺ فلم تكن عصبيته للقحطانية لتبلغ به هذا المبلغ، ونرجح أن خصومه من شعراء صعدة هم الذين عزوا إليه هذا الأمر، ومن المحتمل أنهم أضافوا إلى قصيدته التي يفخر فيها بقحطان أبياتاً تمسّ النبي ﷺ، ولو صحّ أنه قال هذا

(٢٠) المصدر السابق.

(٢١) الإكليل ١ / ٦٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعر لانفضّت عنه قبيلة خولان ولما انتصرت له. والرواية الأدنى إلى الصحة هي التي تذهب إلى أن هجاء وقع بينه وبين شعراء صعدة فدسوا له عند الناصر العلوي، فأمر بسجنه. وهذا الخبر مرويّ في صورة أخرى، فقد ذكروا أن مهاجاة وقعت بينه وبين شعراء صعدة، فدسوا له عند الناصر، فكتب إلى أسعد بن أبي يُعفر بصنعاء، فأمر بسجنه. وهذا الخبر مستبعد في صورته هذه لأن المهاجاة إنما وقعت أيام كان الهمداني بصعدة . وراوي الخبر الأول هو محمد بن الحسن الكَلاعي (ت ٤٠٤ هـ)، وقد نقله عنه عليّ بن الحسن الخزرجي في كتابه «طراز أعلام الزمن في تراجم أعلام اليمن»[٢٢]. والذي يحملنا على الشك في صحة هذا الخبر ما جاء فيه من أن شعراء صعدة الذين هاجاهم الهمداني هجوا قومه قحطان ليثيروه، وصعدة كانت موطن قبيلة خولان، وهي قحطانية، فلا يعقل أن يهجوا قحطان لإغاظة الهمداني. ولا يبعد، في نظرنا، أن يكون الإمام العلوي قد غاظه تعريض الهمداني بعدنان، وهم قوم الإمام الناصر، فاستجاب لدسيسة شعراء صعدة وأمر بسجنه .

وأيا كان سبب سجن الهمداني فإن قبيلة خولان التي كانت تحوطه برعايتها غضبت لسجنه وطلبت إلى الناصر العلوي أن يطلق سراحه. وقد حدثّنا الهمداني عن قيام قبيلة خولان بنصرته، يرأسها سيد أكيل يحيى بن عبد الله بن زكريا الخولاني في سياقة نسب سعد بن خولان فقال: «فأولد عبد الله يحيى بن عبد الله، سيد أكيل ... وهو أحد من قام بفك الهمداني من سجن العلوي بصعدة وأوجب فيه، وكان رجل خولان ولسانها وذا رأسها»[٢٣].

(٢٢) انظر: مقدمة محقق كتاب الإكليل في الجزء الأول منه ص ١٧.

(٢٣) الإكليل ١/٣١٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد قال الهمداني قصائد في مدحه لموقفه النبيل منه، ومن ذلك قوله من قصيدة:

بل ساد كهلان بل سبا بني يشجب ما استجمعت عمائرها
تعجز سادتها عن كل مأثرة فيه وفي كفه مآثرها
أحرزها دونهم وليس لهم صالحة دولةٌ يغادرها»(٢٤)

ومناصرة قبيلة خولان للهمداني تعللها مدائحه لرؤسائها والرجال البارزين فيها.

اضطرّ الناصر إلى إطلاق سراح الهمداني، إرضاء لقبيلة خولان. على أن الهمداني آثر بعد ذلك مغادرة صعدة والعودة إلى بلد المولد والنشأة صنعاء للإقامة فيها. ولا نعرف على وجه التحقيق تاريخ انتقاله إليها ولكننا نقدّر أن ذلك كان بعد سنة ثلاثمئة، لأن مولده كان سنة ثمانين ومئتين. وقد أقام عشرين سنة في صعدة تضاف إليها المدة التي قضاها في صنعاء وريدة.

أما سبب انتقاله إلى صنعاء فيفسره في ظننا فساد صلته بالإمام العلوي وبشعراء صعدة وسجنه، فعاد إلى صنعاء وفيها طوائف من قبيلة همدان.

بيد أن إقامته بصنعاء لم تكن على ما يرجو من الاطمئنان والدعة، لأنه تعرّض للسجن مرّة ثانية بسبب نزوعه إلى هجاء من يسيء إليه. فقد حمله حقده على الإمام العلوي الناصر أحمد، لسجنه في صعدة، على هجائه بشعره، فلما بلغ هجاؤه الناصر أوعز إلى ملك حمير أبي حسّان أسعد بن أبي يُعفر الحِوالي أن يسجنه، فأوعز أسعد إلى ابن أخيه أبي الفتوح أمير صنعاء

(٢٤) كذا وردت هذه الأبيات في المطبوعة من الإكليل ١/ ٣١٣ والبيتان الأولان منها فيهما خلل عروضي فهما غير مستقيمي الوزن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فسجنه، وقد وجد الأستاذ الأكوع خبر سجنه هذا في كتاب عن تاريخ اليمن مجهول المؤلف، وجده في مكتبة الأمبروزيانا في إيطاليا، وهذا نصه: «لمّا بلغ الناصر لدين الله أحمد بن يحيى الهادي عليه السلام أن الحسن بن يعقوب ـ أي الهمداني ـ تنقّصه في بعض أشعاره وثلبه، وكان مقيماً بصنعاء، فكتب الناصر إلى أسعد بن أبي يُعفر يعرفّه بما بلغه من ثلب الحسن ابن يعقوب له، فورد كتاب الأمير أسعد إلى أبي الفتوح الخطاب ابن أخيه عبد الرحمن بن أبي يعفر وهو أمير بصنعاء، يأمره فيه أن يأمر بحبس الحسن ابن يعقوب وتحديده (أي تكبيله بالحديد)، فحُدِّد وضُمّن الحبس، فأقام فيه وهو يوجّه الأشعار إلى قبائل العرب من ولد قحطان يتذرّع بهم إلى الناصر وإلى الأمير أسعد. فمن خاطب الناصر فيه قال: هو في سجن أسعد، ومن خاطب أسعد قال: هو في سجن الناصر»[٢٥].

وقد استبعد الأستاذ الأكوع أن يقدم الهمداني على الهجاء لسمو نفسه ونبل خلقه، ورجّح ماورواه محمد بن الحسن الكلاعي وهو أن شعراء صعدة هم الذين أوغروا عليه صدر الناصر بزعمهم أنه هجاه، فعلوا ذلك انتقاماً منه لهجائه إياهم، ومن المحتمل أنهم افتعلوا أبياتاً على لسان الهمداني في هجاء الناصر.

ونحن لا نوافق الأستاذ المحقق فيما ذهب إليه، فالهمداني كان معروفاً بحدة الطبع ونزوعه إلى هجاء خصومه، وقد هجا شعراء صعدة وهاجوه، ثم هجا بعد خروجه من سجنه بصنعاء أسعد بن أبي يعفر بقصيدة الجار الدامغة. ونرجّح أن ما وقع بين الهمداني وشعراء صعدة إنما كان قبل مقدمه إلى صنعاء، أما سجنه في صنعاء فكان بسبب هجائه الناصر، وفق ما جاء في

(٢٥) مقدمة الجزء الثاني من الإكليل ص ١٦.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخبر المنقول من كتاب تاريخ اليمن.

أثار سجن الهمداني بصنعاء ثائرة رؤساء خولان وأصدقائه من أمراء اليمن، وكانت خولان قد ملّكت عليها قبلُ يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الملقب بالهادي»[٢٦]. ثم انقادوا بعده إلى ولديه محمد بن يحيى والناصر أحمد. فلمّا أمر الناصر بسجن الهمداني في صنعاء قدموا على الناصر أحمد »[٢٧]وطلبوا إطلاق سراح الهمداني. ويحدثنا الهمداني عن هذا اللقاء في الجزء الأول من الإكليل فيقول: «فطلبوا فيه، فأعلمهم أنه لم يسجنه وأن أسعد سجنه في جرم أجرمه إليه، فركب منهم الحسن بن محمد ابن أبي العبّاس إلى أبي حسّان طالباً فيه، فاعتذر وقال: إنما كتب إليّ فيه الناصر أن أسجنه له، فهو في سجنه عندي، فاطلبوا إليه، فإذا أنعم، فيكتب إليّ حتى أطلقه. فانصرف، وعاود جماعة العشّيين[٢٨] الناصر في الطلب، وأعلموه بما قال أسعد، فأبعدهم وأغلظ لهم. فأغلظوا له وتباعد أمرهم وأظهروا له الخلاف، وقاد الحسن بن أبي العباس بني جماعة وقاتلوه بمصنعة كتفَى، فسأل الناصر وجوه خولان أن يصرفوه ويعلموه أنه قد فتح له الهمداني (أي أطلقه)، فرضي وصرف تلك الجموع، ووادعه، حتى صحّ له

(٢٦) الإمام الهادي يحيى بن الحسين ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب، وهو أول من أسس الإمامة الزيدية باليمن. فحين وقعت الحرب بين بطون خولان ولا سيما بين سعد بن سعد والربيعة بن سعد وانتقض أمر الدولة الحوالية قام وفد منهم باستدعاء يحيى بن الحسين من المدينة المنورة سنة ٢٨٣ هـ، فقدم إلى صعدة وحسم الخلاف بين بطون خولان واتخذ مدينة صعدة حاضرة له، فاستجاب لدعوته بعض أهل اليمن وخالفه آخرون فوقعت بين الفريقين حروب متصلة، ودخل صنعاء ثلاث مرات، توفي سنة ٢٩٨ هـ. وقد خلفه ابناه وتوالى الأئمة الزيديون من بعدهم، وابنه الناصر هو الذي سجن الهمداني.

(٢٧) الإكليل ١/ ٤٢٥.

(٢٨) العشيّون: بطن من خولان كان يقطن موضع العشة فنسبوا إليها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن إطلاق الهمداني كان من جهة ابن زياد صاحب زَبيد...»[٢٩].

لبث الهمداني في سجن أسعد ست سنوات، من سنة خمس عشرة وثلاثمئة حتى سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة»[٣٠]، وقد انتقم بعد خروجه من سجنه من أسعد بن أبي يعفر بأن نظم قصيدة طويلة في هجائه سمّاها «قصيدة الجار»، وقد أثبتها الأستاذ الأكوع في الجزء الأول من الإكليل»[٣١]، وأولّها:

خليليَ إني مُخبر فتخبّرا بذِلّة كهلان وحيرة حميرا

ج) وفاته

لا نعرف سنة وفاة الهمداني ولا مكانها، والأخبار متناقضة حول هذين الأمرين، وتجعل إحدى الروايات وفاته في سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة[٣٢]، فقد أورد القاضي صاعد في طبقات الأمم ما نصه: «وجدت بخط أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله بن الناصر عبد الرحمن الأموي أن أبا محمد الهمداني توفي بسجن صنعاء في سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة،». وتابعت طائفة من الباحثين القدامى والمحدثين صاعداً فيما ذكره. بيد أن القفطي الذي أورد خبر صاعد ذكر ما يناقض هذا الخبر فقال: «وسار في آخر زمانه إلى ريدة من البون الأسفل من أرض همدان، وبها قبره وبقية أهله»[٣٣].

(٢٩) الإكليل ١/٤٢٦.

(٣٠) انظر مقدمة الجزء الثاني من الإكليل ص ١٧.

(٣١) الإكليل ص ٦٣.

(٣٢) طبقات الأمم ص ٥٩؛ إنباه الرواة للقفطي ١/ ٢٨٤.

(٣٣) إنباه الرواة ١/ ٢٨٤.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أمّا أنه توفي في سجن أسعد بصنعاء فهذا الخبر لا يصح لأسباب: أولها أن خبر صاعد يعين زمن وفاته بسنة أربع وثلاثين وثلاثمئة، في حين أن الهمداني بقي في سجنه حتى سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة على ما قدمنا.

الثاني: ما ذكره القفطي من أنه سار في أواخر حياته إلى ريدة وتوفي بها، فهو إذن لم يمت في السجن.

الثالث: أننا أوردنا خبر إطلاقه من السجن إرضاء لوجوه خولان أو بوساطة ابن زياد صاحب زَبيد.

الرابع: ثمة أخبار في كتاب الإكليل تدلّ على أن الهمداني عاش إلى مابعد السنة التي ذكرها صاعد ومنها: أن الهمداني أورد في الإكليل خبر وفاة أبي حسان أسعد بن أبي يعفر، وهو الذي سجنه، فذكر أن وفاته كانت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة»[٣٤]. وعلّق المحقق في الحاشية على خبر وفاته ـ ولم يذكر المصدر الذي استقى منه الخبر ـ فذكر أنه لما مات أسعد أخفي خبر موته وجعل في تابوت عليه الحنوط والغالية حتى كانت سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة، فأذيع خبر موته وأقيمت له جنازة حافلة شارك فيها الهمداني، وقال في تلك المناسبة أبياتاً في رثاء أسعد منها:

هذا أبو حسّان في نعشه قوموا انظروا كيف تسير الجبال»[٣٥]

فهذا الخبر يدل على أنه عاش إلى ما بعد سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة. ومنها ما أورده الهمداني في الإكليل في سياقة نسبب محمد بن عبد الله الأوساني ونصّه: «قال أبو محمد عبد الله بن سليمان الحلملي: رويت عن محمد هذا ـ أي الأوساني ـ سنة ست وخمسين وثلاثمئة، وهو من عمره

(٣٤) الإكليل ١/٤٢٦.

(٣٥) الإكليل ٢/ ١٨٤.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ثمانين، وكتبت عنه، وقتل في سنة ستين وثلاثمئة، رحمه الله»[٣٦]، فإيراد هذا الخبر في كتاب الهمداني يدل على أنه عاش حتى سنة ٣٦٠ هـ على الأقل.

د) مكانته

حظي الهمداني بمكانة رفيعة في زمنه وبعده أهلّته لها معارفه الجمّة المتنوعة. فقد كان مؤرخاً ولغوياً ونحوياً وشاعراً ونسّابة وقارئاً للمساند الحميرية وعالماً بالفلك والهندسة. وقد وجدنا رجالات عصره يحرصون على تقريبه وتكريمه ورفع منزلته.

من هؤلاء أبو جعفر أحمد بن محمد بن الضحاك الهمداني، ومحمد بن الحسن بن أبي العباس الخولاني، وإسماعيل بن إبراهيم النبعي الحميري، وابن الرويّة المرادي[٣٧]، وابن زياد صاحب زَبيد. وقد فصّل القفطي (ت ٦٢٦ هـ) القول في المنزلة الرفيعة التي تبوأها فقال: «كان رجلاً محسداً في أهل بلده، وارتفع له صيت عظيم وصحب أهل زمانه من العلماء وراسلهم وكاتبهم. فمن العلماء الذين كان يكاتبهم ويعاشرهم أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، وكان يختلف بين صنعاء وبغداد، وهو أحد عيون العلماء باللغة والعربية وأشعار العرب وأيامها، وكذلك أبوه القاسم ... وكان يكاتب أبا عمر النحوي صاحب ثعلب، وأبا عبد الله الحسين بن خالويه[٣٨].

وكان القفطي شديد الإعجاب بالهمداني، كثير الثناء عليه، ومما قاله فيه: «نادرة زمانه، وفاضل أوانه، الكبير القدر، الرفيع الذكر، صاحب

(٣٦) الإكليل ٢/ ٣٣٢.

(٣٧) إنباه الرواة ١/ ٢٨١.

(٣٨) إنباه الرواة ١/ ٢٨٠.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتب الجليلة، والمؤلفات الجميلة، لو قال قائل إنه لم تخرج اليمن مثله لم يزلّ، لأن المنجّم من أهلها لاحظَ له في الطب، والطبيب لا يد له في الفقه، والفقيه لا يدَ له في علم العربية وأيام العرب وأنسابها وأشعارها، وهو قد جمع هذه الأنواع كلها وزاد عليها»[٣٩].

وأثنى عليه كذلك علي بن الحسن الخزرجي المؤرّخ (ت ٨١٢ هـ) بقوله:« هو الأوحد في عصره، الفاضل على من سبقه، المبرِّز على من لحقه، لم يولد في اليمن مثله علماً وفهماً، ولساناً وشعراً، ورواية وفكراً، وإحاطة بعلوم العرب من النحو واللغة والغريب والشعر والأيام والأنساب والسير والمناقب والمثالب، مع علوم العجم من النجوم والمساحة والهندسة والفلك»[٤٠].

وينوّه القاضي صاعد بالهمداني في أنه من العرب القلائل الذين اشتهروا بالفلسفة[٤١].

هـ) مؤلفاته

إن الثقافة الواسعة المتنوعة التي تزودّ بها الهمداني أهلّته لتأليف كتب في شتى ألوان المعرفة، ولكن المؤلفات التي ذكرت له لا تشمل كل هذه المعارف، فلم تذكر له كتب في اللغة والنحو، ومن المؤسف أن أكثر مؤلفاته لم تصل إلينا، ومن هذه الكتب المؤلفات الآتية، وقد اعتمدنا في بيانها على ما أورده القفطي في إنباه الرواة وعلى ما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون:

---

(٣٩) إنباه الرواة ١/٢٧٩.

(٤٠) بغية الوعاة للسيوطي ١/ ٤٩٨.

(٤١) طبقات الأمم لصاعد ص ١٢١.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١ ـ كتاب القوى، وهو في الطب.

٢ـ كتاب اليعسوب، في فقه الصيد وحلاله وحرامه والأثر الوارد فيه وكيفية الصيد وعمل العرب فيه وما قيل فيه من الشعر. والقفطي يثني على هذا الكتاب ويذكر أنه مفيد للمتأدبين. وقد ألف الهمداني هذا الكتاب قبل كتاب الإكليل لأنه يذكره ويحيل عليه مرات متعددة في الإكليل في سياق حديثه عن فرسان العرب ورماتهم ومن اشتهر منهم بالقنص(٤٢).

٣ ـ كتاب المسالك والممالك باليمن، وقد ذكر القفطي أن في حوزته نسخة منه.

٤ ـ كتاب الجواهر العتيقة.

٥ ـ كتاب أيام العرب.

٦ ـ كتاب الطالع والمطارح وزيجه الموضوع.

٧ ـ كتاب الحيوان.

٨ ـ ديوان شعره: ويذكر القفطي أن الحسين بن خالويه الهمذاني لما دخل إلى اليمن جمع ديوان الهمداني وأعربه، وأن هذا الديوان موجود بهذا الشرح والإعراب عند علماء اليمن، وهم به بخلاء. ثم ذكر مايتضمنه شعره فقال: «وشعره يشتمل في الأكثر على المقاصد الحسنة، والمعاني الجزلة الألفاظ، والتشبيهات المصيبة الأغراض، والنعوت اللاصقة بالأعراض، والتحريض المحرّك للهمم المِراض، والأمثال المضروبة، والإشارات المحجوبة، والتصرّف في الفنون العجيبة»(٤٣). ونقل السيوطي عن الخزرجي أن ديوانه

(٤٢) انظر مثلا: الجزء العاشر ص ٨٨، ١١٧، ١٤١.

(٤٣) إنباه الراوة ١/٢٨٤.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقع في ست مجلَدّات(٤٤).

ويعود فقدان كتب الهمداني إلى أسباب. منها: عصبيته الغالية للقحطانية التي حملت النزارية ومن يتعصبون لهم على إعدام كتبه وشعره. ومنها إقامته باليمن البعيدة عن حاضرة الخلافة، وهذا الأمر يفسر فقدان كثير من المؤلفات اليمنية. ومن هذه الأسباب كذلك ضنّ علماء اليمن بما عندهم من مصنفات رجالهم، على نحو ماذكره القفطي بشأن ديوان شعره. ولا ينبغي أن نغالي فيما ذكره القفطي حول إعدام كتبه، والأستاذ حمد الجاسر يستبعد هذا الأمر ودليله أن الجزء الثالث الذي أظهر فيه عصبيته القحطانية وصل إلى الشام واطلع عليه ابن عساكر(٤٥).

أما مؤلفاته التي وصلت إلينا فهي:

١ ـ كتاب الإكليل، وسنفصل القول فيه فيما يأتي.

٢ ـ كتاب صفة جزيرة العرب، وهو من أهم المصادر الجغرافية في التعريف بجزيرة العرب ومواضعها، ولا سيما بلاد اليمن التي جابها الهمداني وزار مواضعها بنفسه، وليس بين أيدينا كتاب يفضله في هذا الباب وقد طبع أكثر من مرة، طبع للمرة الأولى في ليدن بهولندة سنة ١٨٩١م، وطبع مرة أخرى بمصر بتحقيق الأستاذ محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي سنة ١٩٥٣م، وطبع مرة ثالثة بتحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع وإشراف العلامة حمد الجاسر

(٤٤) بغية الوعاة ١/٤٩٨.

(٤٥) مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٢٥، الجزء الأول سنة ١٩٥٠م ومرجعه تهذيب ابن عساكر ج ٧ ص ٢٦، ٥٣.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ ـ القصيدة الدامغة النونية ومطلعها:

ألا يـا دار لـولا تـنـطـقـيـنـا فـإنّـا سـائـلـوك فـخـبّـريـنـا

وهي قصيدة طويلة قرابة ستمئة بيت في الفخر بقحطان، عارض بها الهمداني قصيدة الكميت التي فخر فيها بالعدنانية ومطلعها:

ألا حُـيـيّـت عـنـا يـامَـديـنـا وهـل بأس بـقـولِ مـسـلّـمـيـنـا

وقد شرح ولد الهمداني قصيدة أبيه، وحصل عليها القفطي في جملة الكتب اليمنية التي أحضرها والده من اليمن، وهو يذكر أن هذه القصيدة أحدثت له العداوة من النزارية والمتنزرّة(٤٦).

وهذه القصيدة مدرجة في نهاية مخطوطة برلين من كتاب الإكليل، (الجزآن الأول والثاني)، وذكر الأستاذ الأكوع أن لديه نسخة منها مبتوراً آخرها وأنه الحق بها ماهو مذكور منها في الجزء الثاني من الإكليل وقد قام الأستاذ الأكوع بتحقيق القصيدة ونشرها .

٤ ـ كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء.

نُشر هذا الكتاب في مدينة إبسالا بالسويد عام ١٩٦٨ بتحقيق المستشرق الدكتور كريستوفر تول مع مقدمة في دراسة الكتاب، ثم قام الدكتور يوسف محمد عبد الله بإعادة نشر الكتاب الذي حققه تول وترجم الدراسة وطبع في صنعاء عام ١٩٨٥ .

ثم أعاد الأستاذ حمد الجاسر تحقيق الكتاب ونشره بالرياض عام ١٩٨٧ .

٥ ـ كتاب سرائر الحكمة

(٤٦) إنباه الرواة ١/٢٨٣.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد عرّف به صاعد في طبقات الأمم فقال: «كتاب سرائر الحكمة وغرضه التعريف بعلم هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب وتبيين علم أحكام النجوم واستيفاء ضروبه واستيعاب أقسامه(٤٧).

وقد وقع جزء من هذا الكتاب في يد الأستاذ محمد الأكوع وهو المقالة العاشرة منه، واستخرج منه تاريخ مولد الهمداني وتاريخ سجنه(٤٨).

* * *

للبحث صلة

(٤٧) طبقات الأمم لصاعد. ص ١٤٧.

(٤٨) انظر: مقدمة الجزء الأول من الإكليل ص ٧٥.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net